رسائل النيل

الرسالة الخامسة في هياكل طيبة ومدافنها

لا يخفى على دارسي تاريخ مصر ان مدينة طيبة الفديمة كانت كرسي الفراعنة في مصر العليا كما كانت مدينة منف في مصر السفلى وكانت مبنيَّة على ضفتي النيل حيث الاقصر والكرنك في الجهة الشرقيَّة وحيث القرنة ومدينة هبو والاتاكن المجاورة لها في الجهة الغربيَّة . ووادي النيل ينبسط في هاتين الجهتين وتبعد عنه الجبال فيتسع فيه المجال لبناء مدينة من اعظم المدائن كما كانت طيبة في ايام مجدها . وقد بقي من الجانب الشرقي منها خرائب الكرنك والاقصر وبعض الهياكل المجاورة لها والظاهر ان هذه الجهة كانت حرَمًا للمدينة ومجمعًا لهياكلها وبقي من الجانب الغربي خرائب بعض الهياكل والمدافن الكثيرة التي كانت في ضواحيه ولا سيَّما مدافن الملوك

وقد زرنا هذا الجانب في يوم صفت سماؤه واعتدل هواؤه فركبنا زورقًا عبر النيل بنا الى الضفة الغربيَّة وكانت الركائب بانتظارنا كما هي العادة في كل مكان وصلنا اليه فعلونا ظهورها وذهبت بنا تطوي صدور الارض على الاعجاز فوصلنا اولاً الى هيكل القرنة الذي بناهُ الملك ستي الاول تذكارًا لابيه رعمسيس الاول ثم مات قبل ان يتمهُ فاتمهُ ابنهُ رعمسيس الثاني الشهير وجعلهُ تذكارًا لابيهِ ستي الاول . وهو بديع البناء والنقش وكثير من نقوشهِ باقٍ من الحائط لا غائر فيه . ثم ركبنا ودرنا بين الآكام الكلسيَّة الصخور في طريق كثير التعاريج الى ان وصلنا الى قبور الملوك المعروفة ببيبان الملوك فرأينا اولاً اختلاط الحجارة بشتف الخزف واستدللنا من ذلك على قرب البلوغ الى مساكن الناس ولو اموانًا

قبور الملوك * وفيما نحن نتأمل شكل الآكام ونحدرها اذا نحن ببابٍ كبير في عرض احداها وعليهِ لوح كتب فيهِ رعمسيس الرابع علقتهُ عليهِ ادارة دار التحف المصريَّة . فدخلنا الباب واذا القبر يمتد امامنا مسافة ٢١٨ قدمًا وجدرانهُ وسقفهُ مغشَّاة بالنقوش والرسوم المختلفة الالوان وداخله ناووس كبير من المرمر الازرق طولهُ احدى عشرة قدمًا ونصف قدم وعرضهُ سبع اقدام وارتفاعهُ تسع اقدام وهو مشقور من احد جوانبهِ ثغرة كبيرة على طولهِ وغطاؤهُ مكسور من وسطهِ . وقد فتح هذا القبر في ايام البطالسة ورآهُ اليونان وكتبوا عليهِ ما يدلُّ على انهم دهشوا ممَّا فيهِ من بديع النقش

ثم دخلنا قبر رعمسيس السادس وهو اكبر من الاول وابدع نقشًا فان طولهُ ٢٤٣

قدمًا وجدرانه كلها مغطاة بالصور والنقوش وعلى سقفه عدا النقوش الكثيرة صورة السماء ومسير الشمس فيها وكل ذلك ملون بالوان زاهية حتّى كأنه خرج من يد النقاش بالامس وكأنّ الدليل اراد ان لا يدهشنا دفعةً واحدة بل تدريجًا فمضى بنا بعد ان رأينا هذين القبرين الى قبر الملك ستي الاول وهو من عجائب الدهر فان طوله نحو ٥٠٠ قدم وعمقه ١٨٠ قدمًا والداخل اليه ينزل اولاً درجًا طولها الافقي ٢٩ قدمًا وارتفاعها العمودي ٢٤ قدمًا ثم يمر في سرداب ثانٍ وهلمّ جرًّا الى ان يصل الى حجرة صغيرة لم يكن وراءها شيء ظاهر فيتوهم الداخل اليها انها هي نهاية القبر. والظاهر ان اليونانيين الذين دخلوا هذا القبر في ايام البطالسة وقفوا عند هذه الغرفة ولم يجتازوها ولكنّ بلزوني السائح الشهير فرع جدرانها فلحظ ان الصوت اصم في كل جهاتها الاّ جهة واحدة فنقب الجدار هناك فوجده يؤدي الى غرفة فسيحة طولها ٣٦ قدمًا في مثلها عرضًا وهي قائمة على اربعة اعمدة وجدرانها واعمدتها مغطاة بالنقوش البديعة ويتصل بها درج توصل الى غرفة أُخرى قائمة على عمودين وصورها وكتاباتها مرسومة على جدرانها ولكنها غير منقوشة ويظهر منها ان الرسّام كان يرسم النقوش اولاً بالحبر الاحمر ثم يأتي واحد بعده يهذبها بالحبر الاسود وفي الآخر ياتي النقاش وينقشها. ولا اظن ان احدًا له المام بشيء من فن النقش والتصوير دخل هذه الغرفة الاّ عجب من مهارة الرسام وسهولة حركة يديه فانه يرسم الخط المستقيم الذي طوله قدم او قدم ونصف بجرّة واحدة. وفي الجهة الجنوبيّة من الغرفة الاولى ذات الاعمدة الاربعة سرداب يوصل منه الى درج أُخرى وسرداب يوصل من هذا السرداب الى حجرة صغيرة ومنها الى غرفة كبيرة فيها ستة اعمدة وامامها غرفة أُخرى كان فيها ناووس بديع من المرمر الشفاف المعروف بالالبستر وهو الآن في مدينة لندن. والى يسارها غرفة كبيرة لها افريز على دائرتها وامامها غرفة طويلة قائمة على اربعة اعمدة وكل ذلك مغطى بالنقوش والكتابات البديعة الالوان وهي تصف احوال الملك ستي في الحياة والممات وملكه الواسع وحروبه وغزواته وتعبُّد الامم له من اهالي الشمال الزرق العيون الى زنوج افريقية. اما جثة هذا الملك فلم توجد في ناووسه بل وجدت مع جثث غيره من الملوك في الدير البحري وهي الآن في دار التحف المصريّة في الجيزة

والظاهر ان الكهنة المصريين كانوا ينشئون هذه المدافن للملوك ولا يدفنونهم فيها مخافة ان تصل اليهم يد العدوان في مستقبل الزمان ولذلك كانوا يخفون جثثهم في مكان آخر لا يعلمه احد من العامة. ولم يخطر لهم ان ابناء القرن التاسع عشر يهتدون الى هذه

الجثث ويعرونها مما يحيط بها من اللفائف والاكفان ويجعلونها فرجة للناظرين

وبعد الفراغ من رؤية هذه القبور عدنا الى هيكل رعمسيس الثاني فاكلنا ما حضر من الطعام وقمنا نتفقد بقايا هذا الهيكل العظيم وهو مفتتح ببرجين عظيمين على بابهِ مثل بقيَّة الهياكل يدخل منها الى دار فسيحة طولها نحو ١٨٠ قدمًا فيها صفان من الاعمدة وداخلها دار اخرى تقرب منها اتساعًا فيها صفَّان من الاعمدة عن اليمين وصفان عن اليسار وصف بجانب الباب في كل عمود منهُ تمثال لرعمسيس الثاني . وصف امامهُ في المقدم وفي كل عمود منهُ تمثال ايضًا وداخل هذه الدار دار ثالثة معمدة بستين عمودًا ووراءها غرف كثيرة . وكل هذه الدور والغرف والاعمدة والسقوف مغطاة بالنقوش البديعة . واعجب ما في هذا الهيكل بل في كل الآثار المصريَّة تمثال عظيم لرعمسيس الثاني من المرمر الازرق كان جالسًا عند مدخل الدار الثانية فاعتدت عليهِ يد الجهل والحماقة وثلمت عرشهُ وحطمتهُ تحطيمًا ورمت التمثال على ظهرهِ كانها استعانت عليهِ بقوة البارود . وقد كان ارتفاع هذا التمثال وهو جالس نحو ستين قدمًا وثقلهُ لا اقل من الف طن وكلهُ قطعة واحدة من المرمر . فوقفت امامهُ مدهوشًا لا اعلم اي الامور اعجب أقطعهُ ونقشهُ وهو من اصلد الصخور المعروفة ام نقلهُ من اسوان الى طيبة ام صرعهُ على ظهرهِ وتحطيم عرشهِ وسائرهِ ولله در مَن قال

الدهرُ يفجع بعد العين بالاثرِ فما البكاء على الاشباح والصُوَرِ

وذهبنا بعد ذلك ورأينا هيكل رعمسيس الثالث وهو من اعظم الهياكل المصريَّة يدخل اليهِ من باب عليهِ برجان عظيمان على جدرانهما صور حروب هذا الملك مع العرب والفينيقيين وفي الدار صفٌّ من الاعمدة المستديرة عن اليسار وصفٌّ من الاعمدة المربعة عن اليمين وفي كل عمود من الاعمدة المربعة تمثال الملك رعمسيس الثالث . وطول هذه الدار نحو ١٢٥ قدمًا وعرضها نحو ١١٠ اقدام ويدخل منها الى دار أخرى بينهما باب من المرمر الاحمر وبرجان رفيعان والنقوش ههنا غائرة جدًّا الى عمق عشرة سنتمترات وهناك كتابة يقال فيها ان رعمسيس بنى هذا الهيكل لابيهِ الاله امنرا واقام لهُ بابًا بديعًا جعل قائمتيهِ من المرمر وغلفهُ من الخشب المصفح بالذهب الابريز . وطول الدار الثانية ١٣٢ قدمًا وعرضها ١٢٢ قدمًا وهي من اجمل المباني المصريَّة وقد حوِّلت في وقت من الاوقات الى كنيسة مسيحية وطليت صورها ونقوشها بالجير فحفظت بذلك من نوائب الايام . ويدخل من هذه الدار الى دار ثالثة ومنها الى غرف كثيرة يطول وصفها

ومما يذكر ليشكر ان ادارة دار التحف المصرية آخذة الآن في تطهير هذا الهيكل وهيكل الاقصر مما فيهما وحولهما من الردم وان الحراس في هذا الهيكل وكل الهياكل التي رأيناها منتبهون الى واجباتهم اشد الانتباه ورجال البوليس قائمون على حراسة السياح وحفظ النظام على اتم ما يكون وخدام سفن كوك يعتنون بالسياح كيفما ذهبوا برًا وبحرًا حتى لا يهم السائح الا بمشاهدة الآثار وتفحصها

ملخص تاريخ طيبة * ليس بين المدائن القديمة مدينة تضاهي طيبة في عظمة آثارها التي صبرت على نكبات الدهر ونوائب الايام فمنف القديمة لم يبقَ منها غير تمثالين وقليل من الحجارة المتفرقة وحتى الآن لم يهتدَ الى موقع هيكلها العظيم مع انها كانت عامرة عند الفتح الاسلامي وبابل ونينوى لم يبقَ منهما الا ركام ورضام بل ان رومة وبغداد وسمرقند لم يبقَ فيها من آثار عظمتها السالفة مقدار ما بقي في طيبة التي صبرت على غزوات الفرس وكل من جاء بعدهم من المخربين

ولا يُعلَم متى مصّر هذه المدينة اولاً ولكنها كانت كرسيًا لملوك مصر في ايام الدولة الحادية عشرة من دولهم اي ايام ابرهيم الخليل وكان لها اسمان الاول مَدَنيٌّ وهو ابيو اي مدينة العروش واذا تقدمته اداة التعريف صار تابيو فلفظة اليونان ثيبي مثل اسم مدينتهم ومنه طيبة في العربية . والثاني ملّيٌّ وهو نوامن اي مدينة امن احد معبوداتهم ونو فقط او نُوى اي المدينة العظيمة . وتعبّد اهاليها للاله آمن اي الخفي او آمن را ومعنى را الشمس ولذلك عُدّ هذا المعبود في رأس معبودات المصريين مدة تسلط ملوك طيبة على القطر المصري ونقل اسمه الى بلاد اليونان قبل الاسكندر المقدوني فلفظ امون ومنه هيكل امون الذي استخرج النشادر بتربه فسمّي امونيا

ومنذ ايام الدولة الثانية عشرة عظم شأن طيبة وصرف ملوكها همتهم الى اتقان الزراعة والري فراقبوا ارتفاع النيل السنوي من عند بلاد الحبشة وانشأ واحد منهم خزانًا كبيرًا للماء روى به بلاد الفيوم فزادت ثروة البلاد وطمع فيها الاجانب ودخلها الملوك الرعاة واستولوا عليها مدة طويلة الى ان قام والٍ من ولاة طيبة وشقّ عصا الطاعة واستنهض قومه لمحاربة الملوك الرعاة فقهرهم واخرجهم من مصر . واستتبّ الملك لملك طيبة في نحو القرن السادس عشر قبل المسيح ومنه نشأت الدولة الثامنة عشرة من الدول المصرية وفي ايام هذه الدولة والدولة التالية بلغت طيبة اوج مجدها وكانت قصبة لملوك هاتين الدولتين والدولة العشرين ايضًا وقد تنافسوا في انشاء هياكلها وتكبيرها وتزيينها والظاهر

ان احد ملوكها اقام التمثالين العظيمين الشهيرين امام هيكل امنهوتب وارتفاع كلٍّ منهما نحو ستين قدمًا وهما جالسان الآن في سهل نصر كانهما حارسان يحرسانه من غوائل الزمان

ثم توالت الحروب الخارجية والقلاقل الداخلية وتنصب كثيرون من الملوك الضعفاء الذين لا يقدرون على سياسة الملك فضعف شان طيبة وانحطت عن عظمتها الاولى ولكنها بقيت من امنع المدن واعظمها حتى انها كانت اعظم مدن المسكونة في ايام هوميرس الشاعر اليوناني وذلك بعد ان تولاها الضعف والانحطاط ثلاثة قرون متوالية . وبعد قرنين من ذلك العهد ذكرها النبي ناحوم احد انبياء اليهود وهو يخاطب نينوى المدينة العظيمة فقال لها "هل انتِ افضل من نوامون (اي طيبة) الجالسة بين الانهار . . . هي ايضًا مضت الى المنفى بالسبي واطفالها حُطِّمت في رأس جميع الازمة وعلى اشرافها القوا قرعةً وجميع عظمائها قيدوا بالقيود" وكأنهُ وصف ما حل بها من ملوك اشور الذين نهبوا كنوزها وكل شيء ثمين فيها وخربوا قصورها وهياكلها وسبوا رجالها ونساءها وجلوهم الى نينوى وذلك في اواسط القرن السابع قبل المسيح ثم حل بنينوى ما حل بطيبة

ولم تعد طيبة بعد ذلك الى عظمتها الاولى مع ان البطالسة بذلوا جهدهم في توسيع هياكلها وتكثير تحفها . وعصا اهالها على البطالسة مرتين واستقلّ ولايتها مرةً فحاربهم ايبفانيس وتغلّب عليهم ثم شقوا عصا الطاعة مرةً أُخرى في عهد بطليموس العاشر فحاصرهم ثلاث سنين وافتتح المدينة عنوةً واباحها سلبًا وحرقًا ومن ثم الى الآن لم تقم لها قائمة . وكان من حظ هياكلها انها خربت قبلما زالت الديانة الوثنية وانهُ لم تبنَ بجانبها مدينة أُخرى تأخذ حجارة هياكلها والاّ لاصابها ما اصاب منف وزال منها الاثر بعد العين

مدافن الملوك * لم تمكني الفرصة من مشاهدة مدافن الملوك التي كشفت في الدير البحري منذ عشر سنوات ولكنني رأيت احد الذين كشفوها وجمعت من افواه الثقات ما خلاصتهُ وهي انهُ كان في القرنة رجل خبير باماكن الآثار المصرية اهتدى منذ خمس وعشرين سنة الى مدفن كبير فيهِ كثير من توابيت الملوك وجثثهم والتحف التي تدفن معهم وفي جملتها كثير من كتب الاموات والتماثيل الصغيرة فجعل يشق الكتب ويستخرج التماثيل والتحف ويبيعها للسياح فلما وصلت الى اوربا استدلّ علماء الآثار منها على انها جزء من خبيئة كبيرة وجدت في نواحي طيبة . وكان المسيو مسبرو مديرًا لدار التحف المصرية حينئذٍ فاخذ يستقصي البحث الى ان حصر الشبهة في الذين يبيعون هذه التحف فالقى القبض على واحد منهم واودع السجن ثم وقع الخلاف بين اخوتهِ فاقرّ واحد منهم بما كان من امر الخبيئة واذا هي

في غرفة كبيرة يوصل اليها ببئر عمودية عمقها نحو اربعين قدمًا وبين قاع البئر والغرفة سرداب طولهُ نحو ٢٣٠ قدمًا. واقام المسيو برغش واحمد افندي كمال على ثم البئر ثمانية واربعين ساعة حتَّى استخرجت كل التوابيت ثم اتي بها الى دار التحف المصريَّة وكانت حينئذٍ في بولاق. وبين هذهِ التوابيت تابوت الملك سيكنن را وجثتهُ والملك احمس الاول وامنحتب الاول وتحتمس الاول والثاني والثالث وستي الاول ورعمسيس الثاني وغيرهم من الملكات والامراء وروَّساء الكهنة. وهذه التوابيت وما فيها من الجثث المحنطة معروضة الآن في دار التحف بالجيزة. ومن رأي المسيو مسبرو ان ابوبوث ابن الملك ششنق نقل هذه التوابيت من مدافنها في بيبان الملوك الى هذا المدفن سنة ٩٦٦ قبل المسيح خوفًا عليها من اللصوص الذين كثروا في البلاد حينئذٍ وكانوا ينبشون القبور وينهبون ما فيها. ففي دار التحف المصرية الآن اجساد اشهر ملوك مصر الذين رقُوا بلادهم الى اعلى مراقي المجد وامتدوا في غزواتهم من بلاد الحبشة جنوبًا الى البحر الاسود شمالاً وتعبَّدت لهم الشعوب والقبائل تعبدهم للآلهة وحرص خلفاؤهم على هذه الاجساد لكي لا تختلط بادیم الارض بل تبقى سليمة الى يوم المعاد

سكة الحديد من مصر الى الشام

لخَّصنا في المقطم تاريخ السلطنة العثمانيَّة في العام الماضي فذكرنا اعظم ما جرى فيها مع البلاد الخارجيَّة واهم ما شرعت فيهِ او اتتهُ من المسائل الداخليَّة وختمنا الكلام بقولنا انهُ عام امتاز بالسكك الحديديَّة في ولايات السلطنة السنيَّة. ولم نجد لتأييد هذا القول دليلاً اقطع وتفصيلاً اوسع مما اوردهُ اللبيب المتفنن سعادتلو انطون بوسف بك لطفي في مقالة تلاها على الجمعيَّة الجغرافيَّة فوقعت اعظم موقع من سامعيها لجلالة مبحثها ووضوح حقائقها وعظمة فوائدها. فاحببنا تلخيصها في هذه المقالة تعميمًا لفوائدها وحثًّا للراغبين في ترقية الحضارة وتوسيع نطاق العمران وتبادل المنافع بين مصر والشام على الاخذ في يد الشارع في هذا المشروع المفيد وشد ازرهِ في انجاز مسعاهُ الحميد

سبقت الحضرة الشاهانيَّة اعزها الله الى تعميم السكك الحديديَّة في ولاياتها كما سبقت الى تميز رعيتها بعنايتها والتفاتها فمنحت حضرة يوسف افندي ناقون من اعيان القدس الشريف امتيازًا بانشاء سكة حديد من القدس الى يافا طولها ٨٠ كيلومترًا ومن القدس